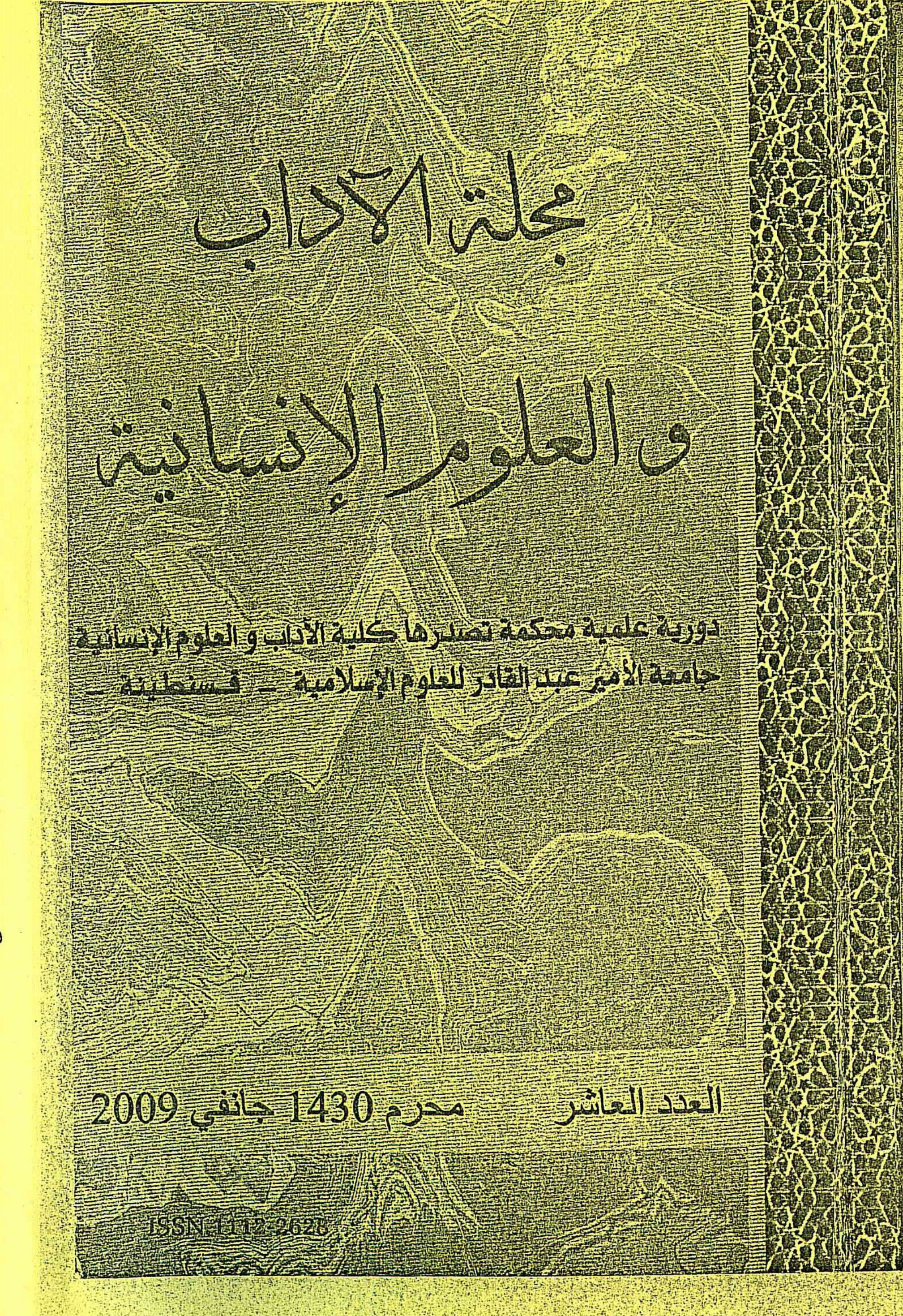


مجلة الآداب

والعلوم الإنسانية

دورية علمية محكمة تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة-

العدد العاشر محرم 1430 **جانفي** 2009

ISSN.1112-4628

يتسامح في إجازة بوجه، ولا يمكن منها إلا بعد التحصيل، ومن ظفر من الطلبة بإجازته فقد ظفر بالغاية القصوى، ووصل إلى المرتبة العليا. وما أدركت من أدركت من الطلبة إلا وهم يفخرون بلقائه والقراءة عليه."[1]

له إسهامات في مجال التأليف منها اختصاره لكتاب التيسير لأبي عمرو الداني، إلا أنه برز أكثر في مجال التدريس، حيث تخرج على يديه عدد من الطلبة والأساتذة.[2]

وفي خاتمة هذا البحث، نلاحظ أن هؤلاء العلماء أسهموا أيما إسهام في النهضة الفكرية التي عرفتها مدينة بجاية خلال القرن السابع الهجري، إلى جانب علماء آخرين وفدوا عليها من بيئات مختلفة لا سيما من الأندلس، بالإضافة إلى مجهودات العلماء البجائيين. وشجع موقع المدينة الجغرافي، وظروفها على تلاقح الأفكار وثرائها. كما نشير إلى أن مدينة القلعة ظلت خزانا للعلماء والفقهاء، رغم تراجع دورها السياسي. ولقد تحكم هؤلاء العلماء الذين أشرنا إليهم في علوم عصرهم، وساهموا في بثها بين أجيال من الطلبة والمتعلمين، وأثروها باجتهاداتهم من خلال مؤلفاتهم.ولم يكن هؤلاء العلماء بمعزل عن مجتمعهم، بل ساهموا في تطويره وخدمته، من خلال الوظائف التي شغلوها، والمهام التي أوكلت لهم.

---

[1] نفسه، نفس الصفحة.

[2] نفسه، نفس الصفحة.

دور الشرطة في استتباب الأمن بالمغرب الأوسط
" العهد الزياني نموذجا "

د. خالد بلعربي

جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس

يحفل التاريخ الزياني بكثير من القضايا والانعطافات التي ما زالت بقعة من بقع التاريخ المنسي، فعلى الرغم من تنامي الدراسات الكثيرة في حقل التاريخ الزياني خلال هذين العقدين الأخيرين، لا تزال بعض القضايا الخاصة بهذا التاريخ بعيدة عن مناطق الضوء، ومن هذا القبيل الدور الذي كانت تضطلع به الشرطة في عهد الدولة الزيانية.

إن هذا الموضوع لم يشغل سوى مساحة قليلة في الإسطوغرافيا المغربية الوسيطية، كما أنه لم يحظ بالتفاتة علمية تذكر من قبل الباحثين والمهتمين بتاريخ بني زيان من خلال دراسته دراسة مستقلة تستوفي جميع الشروط باستثناء بعض الإشارات العابرة عنه أثناء الحديث عن تاريخ الدولة الزيانية بصفة عامة، ينهض دليلا على ذلك ما كتبه الدكتور عبد العزيز فيلالي

حول "تلمسان في العهد الزياني"[1] وما كتبه عطاء الله دهينة حول "المملكة العبد الوادية في عهد أبو حمو موسى الأول وأبو تاشفين الأول"[2].

قد يفسر هذا الإقصاء من دائرة اهتمامات الباحثين والمؤرخين بشح المادة التاريخية في المقام الأول، ذلك أن المصادر التاريخية الزيانية ضربت صفحا عن ذكر أخبار خطة صاحب الشرطة ودوره في حفظ الأمن والنظام والآداب العامة، باستثناء إشارات شاحبة وردت بكيفية عفوية في هذه المصادر، وقد يكون السلطان أبو حمو موسى الثاني (ت:791هـ/1388م) في كتابه "واسطة السلوك في سياسة الملوك" قد خرج عن قاعدة الإقصاء في الوصية التي دوّنها لابنه من بعده عن دور صاحب الشرطة بقوله " ثم يدخل صاحب شرطتك وحكّام بلد حضرتك ليخبرك بما يريد في ليلتك، ولا يخفي عليك شيء من أحوال رعيتك، وبلدك مع ضبط مملكتك، فتسأله عن القليل والكثير والجليل من الأمر والحقير، لئلا يتوصل أهل العناية للرعية مضرة ولا أذية، ولا يقع من الحاكم جور في بلد ولا ظلم لأحد، فإنه إذا علم الحاكم أو غيره من أهل العنايات وأهل الدعاوى والجنايات بأن الملك، لا يغيب عنه شيء من أحوال بلده فيمتنع كل منهم من استطالة يده، فيقف الناس عند حدودهم"[3].

تأسيسا لهذه الملاحظات المصدرية سنحاول تناول موضوع الشرطة ودورها في استتباب الأمن بالمغرب الأوسط في فترة محددة وهي مرحلة الزيانيين (ما بين القرنين 7-9/هـ13-15م) محاولين تعقب السؤالين الآتيين: كيف

1 عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني، ج ١، دار موفم للنشر والتوزيع 2002 .

2 عطاء الله دهينة، المملكة العبد الوادية في عهد أبو حمو موسى الأول إلى أبوتاشفين الأول، د م ج الجزائر ، (بدون تاريخ).

3 أبو حمو موسى الثاني، كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك، مطبعة الدولة التونسية ، تونس 1379 هـ الموافق لـ 1862 م ص 83 .

كان حال الوضعية الأمنية في العهد الزياني؟ وما هو دور السلطة المركزية في استتباب الأمن داخل ربوع الدولة؟

كانت الشرطة من النظم الإدارية التي عني بها الزيانيون، وقد ورثت الدولة الزيانية مثل جيرانها هذه الخطة عن الموحدين، بحيث كانت مهمة صاحبها حفظ الأمن والنظام والآداب العامة، وتتبع الجرائم وإقامة الحدود[1]، وقد أعطاها الزيانيون عناية خاصة إلى جانبي الحسبة والمظالم، وكان لا يتولى خطة صاحب الشرطة إلا من اتصف بالصلابة والحسم في الأمور الشرعية والسياسية حسب تعبير ابن خلدون[2] وإذا كانت المصادر الزيانية قد سكتت عن إفادتنا بالفترة الزمنية التي نشأت فيها هذه الخطة، فإن الأكيد أن استفحال ظاهرة اللاأمن في بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني هو الذي دفع سلاطين بني زيان للتفكير في إنشاء خطة صاحب الشرطة حرصا منهم على تصفية عناصر الشر والفساد والجريمة واللصوصية داخل مدن الدولة، وإن كتب النوازل تجيب عن كثير من التساؤلات المتعلقة بدفع الفساد وتأمين السبل لتؤكّد انعدام الأمن خلال هذه الفترة من ذلك ما يتضح من جواب الفقيه قاسم العقباني لمرابط يستفسر عن الإقامة في مواضع كانت سابقا بيد أهل الفساد وذلك بقوله "الحمد لله، إنّ إقامة هذا المرابط بهذا الموضع...من باب إعانة اللهفان، ودفع الفساد عن أهل الأمان، وما أعظم المثوبة في ذلك وما هذا إلا جهاد عظيم، وشرف دائم مقيم..."[3] ، كما كان يظهر انعدام الأمن خلال هذه

1 الأخضر عبدلي ، مملكة تلمسان في عهد بني زيان ، أطروحة شهادة التعمق في البحث المرحلة الثالثة (مرقونة) جامعة تونس ص ص 169 / 170.

2 ابن خلدون عبد الرحمن ، المقدمة دار الكتاب اللبناني بيروت 1967 ص 446 .

3 أبو عبد الله محمد العقباني ، كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر تحقيق محمد علي الشنوفي ، نشر في:

الفترة في خطر الكثير من القبائل التي كان يحترف قطاع كبير منها اللصوصية وقطع الطرق، ويبدو ذلك من خلال الحوادث المتكررة لهجمات أولئك اللصوص على قوافل التجار والمسافرين وفي نقاط مختلفة من بلاد المغرب الأوسط، وهذا ما جعل ظاهرة انعدام الأمن هي السائدة، ومما جاء في وصف العبدري للمرحلة المؤدية إلى تلمسان انطلاقا من أراضي المغرب الأقصى قوله: " ولما انتهينا إلى المفازة التي في طريق تلمسان، وجدنا طريقا منقطعا مخوفا لا تسلكه الجموع الوافرة إلا على حذر واستعداد، وتلك المفازة مع قربها من أضرّ بقاع الأرض على المسافر لأن المجاورين لها من أوضع خلق الله وأشدهم إذابة، لا يسلم منهم صالح ولا طالح، ولا يمكن أن يجوز عليهم إلا مستعد يتفادون من شره، وطلائعهم أبدا على مرقب لا يخلو منها البتة"[1].

ويصف لنا أبو العباس أحمد المعروف بالمريض وهو من المغرب الأوسط من خلال سؤال مؤرخ سنة 796هـ/1393م إلى شيخه الفقيه أبي عبد الله بن عرفة ولأهمية هذا النص ارتأينا أن نبثه كما ورد مختصرا عند المازوني قائلا "سيّدنا أمتع الله بكم من مسألة، وهي جماعة من مغربنا من العرب تبلغ ما بين فارسها وراجلها قدر عشرة آلاف أو تزيد ليس لهم حرفة إلا شن الغارات وقطع الطرقات على المساكين، وسفك دمائهم وانتهاب أموالهم بغير حق... ثم مع ذلك لا تأمن الرفاق من جانبهم، نصبوا الغارات على هذه البلاد التي نحن فيها، وقتلوا من عاجلوه وقطعوا الطرقات..."[2].

(1965-1967) T.X/X. *Bulletin d'études orientales* ص 28 .

[1] العبدري البلنسي محمد ، الرحلة المغربية تحقيق أحمد بن جدو ،مطبعة البعث قسنطينة(ب ت) ص 8.

[2] المازوني أبو زكرياء ، الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، ج1 مخطوط رقم 1335 المكتبة الوطنية الجزائر ، ورقة 180 .

لقد هيأت ظروف القهر الاقتصادي والاجتماعي المجال أمام استفحال ظاهرة اللاأمن في ربوع بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، ومن القرائن الدالة على ذلك أن قلة المواد الغذائية الناجمة عن المجاعة التي أصابت تلمسان سنة 776هـ/1373م، اضطر ابن قنفذ القسنطيني أن يقيم في تلمسان لانعدام الأمن في المسالك والطرق بسبب هذه المجاعة[1]، ويذهب ابراهيم حركات في هذا الاتجاه حين يؤكد أن قطاع الطرق واللصوص ينشطون خصوصا في سنوات الجدب والمجاعة بسبب تفريط السلطة في اتخاذ وسائل العلاج الاقتصادية والأمنية[2] فخلال سنوات من حكم السلطان يغمراسن بن زيان (633-681هـ/1235-1282م) وعلى إثر حملة السلطان المريني أبي يعقوب سنة (670هـ/1270م) وحصاره لمدينة تلمسان "كثر نهب القبائل فخرجت قبائل توجين التي كانت مناوئة للسلطة المركزية الفرصة وراحت تعمل للنهب والتخريب بجهات تلمسان " فقطعوا الثمار، ونسفوا الآبار، وخرّبوا الربوع، وأفسدوا الزروع ولم يدعوا بتلك الجهات قوت يوم حاشا السدرة والدوم[3]".

لقد عانت الدولة الزيانية من أهوال الغزو الخارجي وزعزعة الأمن لفترات تطول غالبا أكثر من فترات السلم بالنظر لكثرة الفتن والصراعات وما يتبع ذلك من أعمال تخريبية واعتداءات على الأرواح، وكانت تلمسان تعد من أهم مدن

---

[1] ابن قنفذ ، أنس الفقير وأعز الحقير ، تحقيق محمد الفاسي و أودولف فور ، مطبعة أكدال الرباط 1965، ص 105.

[2] ابرهيم حركات ، المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط ، إفريقيا الشرق ، 1998 ص 260.

[3] ابن أبي زرع الفاسي علي ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار وملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط ، 1973 ص ص 131 – 132.

ب الأوسط المعرضة باستمرار لهذه النكبات، ومما يذكر في هذا الصدد سلطان المريني أبو الحسن عندما تمكن من اقتحام مدينة تلمسان في 27 ن سنة 737هـ/1336م وقتل السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (718-)، انطلقت أيدي النهب على البلد فلحقت الكثير من أهله معرة في أموالهم هم..."[1]

غم من أن بعض المصادر قد وضعت المجتمع الزياني بأنه كان ينعم اة الاقتصادية الميسورة، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الفئات الاجتماعية ر حرمانا والعاطلة عن العمل من تهديد الأمن داخل مدينة تلمسان فهم أحد الباحثين المحدثين باللصوص والشحادين في أروقة المدن[2]، أحد الباحثين أن ظاهرة اللصوصية وغياب الأمن داخل المجتمع التلمساني عهد الزياني مرده النزوح المستمر نحو العاصمة تلمسان، وقد أزعجت هذه رة محمد بن مرزوق الخطيب فعبر عنها قائلا: " تلمسان كثر فيها المنكر فيها الحلال"[3]، ويضيف بأن قاضي وإمام مسجد درب مرسى الطلبة بمدينة ان كان قد أمر بأن لا يخرج الصبي من دربه، إلا برفقه والده أو أحد أقاربه[4] عليه من المنحرفين والسراق وبالتالي من انعدام الأمن داخل المدينة في الأحيان.

بناء على ذلك نعتقد أن انتشار ظاهرة اللصوصية التي أدت إلى تهديد ن داخل الفضاء الزياني، لم تكن سوى إفرازا للأزمات التي مرت بها

خلدون كتاب العبر، ج 6، طبعة بيروت، 1968، ص536.

ن مرزوق أبو عبد الله محمد الخطيب، المجموع، ميكروفيلم الخزانة العامة الرباط، 19.

سه، ورقة 13.

سه ،ورقة 4.

وانعكاسا للتمايز الاجتماعي الذي تمخض عنه بروز تناقضات اجتماعية، وقطاعات غير قادرة على تحصيل عيشها عاجزة عن الإندماج في عملية الإنتاج[1]. أمام هذه الوضعية، ماذا فعلت الدولة الزيانية من أجل استتباب الأمن داخل مدنها؟.

لا شك أن سلاطين بني زيان قد عينوا بإقرار الأمن داخل ربوع الدولة التي كانوا يديرون شؤونها لمدة ما يزيد على ثلاثة قرون. ومن أجل ذلك أكثروا من تشيد الأسوار والأبراج والقلاع ضمانا لحماية متكاثفة للمدن والضواحي[2]، كما عمدوا إلى الاعتماد على الشرطة في حفظ الأمن، لقد قامت الشرطة في العهد الزياني بدور كبير وحاسم في تطبيق الأحكام الصادرة عن القاضي وصاحب المظالم، يظهر ذلك جليًا في عهد السلطان أبو حمو موسى الثاني بحيث أكد لابنه من بعده بالاعتناء بهذه الخطة عن طريق مساءلة صاحب الشرطة في كل ليلة ما يقع داخل البلد من صغيرة وكبيرة حتى يتجنب الظلم والجور[3] وكان أبو حمو موسى الثاني قد قلد هذه الخطة لموسى بن يخلف الذي كان عينا له وعليه في نفس الوقت فقد تواطأ مع ولي العهد أبي تاشفين الثاني على اغتيال يحي بن خلدون الكاتب الخاص لأبي حمو موسى الثاني[4] وكان الولاة يقومون بمساعدة صاحب الشرطة في تأدية مهامه لكن كان صاحب الشرطة في العهد الزياني ينظر

---

[1] ابراهيم القادري بوتشيش، "ظاهرة التسول في الغرب الإسلامي خلال القرن السادس /هـ ، 12 م" ضمن أعمال الملتقى الدولي في التاريخ حول التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور ،جامعة قسنطينة 23 – 24 أفريل 2001 ، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية ص 178.

[2] عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق، ج 1 ، ص 118 .

[3] أبو حمو موسى الزياني ، المصدر السابق ، ص 83.

[4] الأخضر عبدلي ، المصدر السابق ، ص 223 .

في أحكام الجرائم ابتداء ثم تنفيذ الحدود الخاصة بها، وكانت الحدود تطبق بصرامة كبيرة، بل إن الزيانيين جعلوا للأسواق شرطة خاصة بها ينفذ صاحبها أحكام المحتسب والقاضي في عين المكان لأن الحياة اليومية وأسعار الأسواق وما يتعلق بها من غش وأخطار لا تحتمل المسطرة القضائية[1]. ومن أجل تطبيق القوانين الصادرة عن القاضي شيد بنو زيان لهذا الغرض عدة سجون حسب أنواع السجناء وطبقاتهم، وربما كان للمجرمين سجن خاص بهم وللمعتقلين السياسيين والرهائن سجنهم فالنصوص الزيانية تشير إلى وجود عدة سجون في مدينة تلمسان، واحد بالقرب من سوق السراجين[2]، والثاني بالقصبة[3]، والثالث بدويرة بقصر المشور وغيرها وكانت حماية الطرق تحظى كذلك بعناية سلاطين الدولة الزيانية، إذ كانت هناك مؤسسة جهوية كلما اقتضت الظروف إقامتها وتدعي ولاية الطريق وعملها شبيه بأعمال مؤسسة الشرطة الحديثة، ومسؤوليتها الرئيسية، المحافظة على أمن المسافرين وأمتعتهم والتدخل لردع اللصوص والقطاع وإقامة مراكز الاستقبال والتموين.

إن الشرطة في العهد الزياني قامت بدور كبير في الحفاظ على الأمن داخل الحواضر وهذا الدور الذي اضطلعت به لم يكن لو لم يحرص سلاطين بني زيان على ذلك، واكتسبت خطة صاحب الشرطة في العهد الزياني خصوصية ميزتها عما كانت عليه عند الحفصيين أو المرينيين حيث أصبحت مقننة من خلال وصية أبي حمو موسى الثاني التي يذكر فيها " فتسأله (صاحب الشرطة) عن القليل والكثير والجليل من الأمر والحقير... لئلا يتوصل أهل العناية من

---

[1] ابن مرزوق ، المجموع ، ورقة 23 .

[2] ابن خلدون ، العبر ، ج 7 ، ص 215 .

[3] ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق عبد الرحمان طالب ، د م ج الجزائر، 1986 ، ص 28

للرعية مضرة ولا أدية...) وبهذا يكون السلطان أبو حمو قد أكد ضرورة مساءلة صاحب الشرطة فيما يقع من أحداث داخل الدولة ووجوب اتخاذ جميع التدابير من أجل الحفاظ على الأمن حتى لا يلحق بالرعية أي أدى، وبالتالي جعل من خطة صاحب الشرطة مسألة خاصة بالرعية.

لهذا اضطلعت الدولة الزيانية بمهمة حفظ الأمن داخل مدنها، وكان إصرارها كبيرا في ذلك، وربما يأتي هذا الحرص منها، لأن قضية الأمن ظلت تشكل هاجس السلطة في بلاد المغرب الأوسط، لقد قام بنو زيان بتوفير كل وسائل الراحة والاطمئنان بالنسبة لسكان الدولة فتمكنوا من حماية الطرق التجارية، وإقرار الأمن داخل ربوع الدولة رغم ما كانت تتعرض له هذه الدولة من محاولات لزعزعة الأمن بداخلها، وبفضل السياسة الأمنية التي طبقها حكام بنو زيان فإن الدولة الزيانية كما يقول الأستاذ عبد الحميد حاجيات ظلت تنمو وتزدهر حتى دب فيها الضعف في القرن التاسع والعاشر الهجريين[1].

---

[1] عبد الحميد حاجيات، المسالك والدروب في المغرب الأوسط ، المجلة العربية للثقافة الألسكو، العدد 5 ، تونس، 1983 ، ص 89 .